ماهر داود

قراءة في السيرة الذاتية عن إيهود باراك

الكتاب: معارك حياتي/ سيرة ذاتية تتناول أيهود باراك، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق

المؤلفان: إيلان كفير، داني دور

الناشر: كينيرت، زموراه- بيتان

عدد الصفحات: ٤٠٠ صفحة

لغة الكتاب: اللغة العبرية

مقدمة:

يتناول الكتاب سيرة حياة إيهود باراك، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، ورئيس الوزراء ووزير الدفاع سابقاً. والطبعة التي بين أيدينا هي الأولى من الكتاب الصادر عام ٢٠١٥باللغة العبرية. ويتناول مسيرة حياة باراك، بدءاً بجذور عائلته في لتوانيا، ومروراً بطفولته في كيبوتس مشمار هشارون، وتفوقه الدراسي، والعمليات التي شارك فيها أو خطط لها وقادها، مثل تخليص رهائن في أوغندا، واغتيال قادة المقاومة في بيروت: كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجار، وتصفية خليل الوزير- أبو جهاد في تونس. ومروراً بحياته السياسية الحافلة بالأحداث، أبرزها رئاسة الحكومة الإسرائيلية التي امتدت بين عامي ١٩٩٩– ٢٠٠١ والتي انهارت بدورها أمام تفكك الائتلاف الحكومي، وانسداد الأفق السياسي وصولاً إلى اندلاع انتفاضة الأقصى في أيلول من العام ٢٠٠٠ في أعقاب تعثر مؤتمر كامب ديفيد، وصولاً إلى اعتزاله الحياة السياسية في العام ٢٠١٣.

اعتُبر باراك أكثر الضباط الإسرائيليين حصولاً على الأوسمة وشهادات التقدير، في حين أن ولايته كرئيس للحكومة كانت قصيرة وحافلة بالعراقيل والخيبات، ولعل أبرزها الفشل في الوصول إلى

لا بد من القول هنا إن تناول الكتاب بالقراءة والتحليل يهدف إلى تسليط المزيد من الضوء على الشخصية، وقد تبدو بعض الأحداث والعمليات التي تناولها الكتاب مبالغا فيها أو غير دقيقة، وقد يغلب عليها الاستعراض والإسهاب في ذكر المناقب وتفصيل الإنجازات.. فهي تعكس وجهة النظر الإسرائيلية التي لا يخفى تأييدها هنا لباراك، وهي تبين أهمية الخدمة العسكرية لأي مرشح لدخول السياسة، حيث تعتبر تلك الخدمة الحافلة بالإنجازات بمثابة بطاقة دخول إلى عالم السياسة.

اتفاق نهائي في مؤتمر كامب ديفيد عام٢٠٠٠م. وباراك إذ اعتُبر خليفة لرابين ومتمماً لنهجه، كان يطمح للظهور كمن وضع حداً لأكثر الصراعات دموية في الشرق الأوسط.

ينقل لنا هذا الكتاب سيرة حياة شخص اتسم بالجرأة النادرة كما يصفه مؤيدوه، وذلك إلى جانب ميزة مقاومة الضغط والابتزاز التي ساهمت في سقوطه قبل نهاية فترة ولايته كرئيس حكومة، تماماً كما ساهمت في صعوده كعسكري. وبين «الضمانة الكبرى التي حملها لأمن إسرائيل، وخيبة الأمل الكبرى، وعدم نيل الفرصة الكافية لإثبات الذات»، يعتقد مؤيدوه ومعارضوه على حدّ سواء أن الرجل الذي كان لسنوات في مركز صنع القرار لا بد وأن يعود، ويرى فيه مؤيدوه ديغول الفرنسي.. وسيعود إلى قمة الهرم يوماً ما.

الجذور: من ليتوانيا إلى «كيبوتس مشمار هشارون»

يقف الفصل الأول من الكتاب عند جذور عائلة باراك القادمة من لتوانيا –إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق– إلى كيبوتس مشمار هشارون في العام ١٩٣٢م. ويصف طفلاً اتسم بالانطواء والصمت. وإلى جانب مهارات التعقب وتفكيك الأقفال المعقدة، فقد برع الطفل إيهود بروغ (اسم الطفولة الذي تحول لاحقاً إلى باراك) حينها بمهارات القيادة والتأثير على المحيطين به، فيما اعتبر مؤشراً على مستقبل حافل بالتوقعات. ولكن الخصائص التي ساعدت باراك كأحد أكثر القادة نجاحاً وتميزاً لم تسعفه طويلاً في عالم السياسة. الجرأة والعناد وروح القيادة التي ميزته كعسكري كانت أبرز عوامل سقوطه كسياسي، إلى جانب عدم قبوله للضغط والابتزاز في واحدة من الوظائف الأكثر تعقيداً وحساسية: رئاسة الحكومة الإسرائيلية.

الجندي في الكتيبة التاسعة

التحق باراك بالخدمة العسكرية أواخر العام ١٩٥٩م. ولم يحظ الجندي قصير القامة نحيل الجسم بالقبول لسلاح الطيران، فتم دمجه في سلاح المدرعات، وقد أظهر مهارات قراءة الخرائط والتعقب والتوجيه في السادسة عشرة من عمره. وسرعان ما تم استدعاؤه للانضمام لدورية رئاسة الأركان، الوحدة الخاصة السرية في الجيش الإسرائيلي، حيث شق طريقه إلى أعلى سلم القيادة، جنباً إلى جنب مع دراسة الفيزياء والرياضيات في الجامعة العبرية في القدس.

لا بد من القول هنا إن تناول الكتاب بالقراءة والتحليل يهدف إلى تسليط المزيد من الضوء على الشخصية، وقد تبدو بعض الأحداث والعمليات التي تناولها الكتاب مبالغا فيها أو غير دقيقة، وقد يغلب عليها الاستعراض والإسهاب في ذكر المناقب وتفصيل الإنجازات.. فهي تعكس وجهة النظر الإسرائيلية التي لا يخفى تأييدها هنا لباراك، وهي تبين أهمية الخدمة العسكرية لأي مرشح لدخول السياسة، حيث تعتبر تلك الخدمة الحافلة بالإنجازات بمثابة بطاقة دخول إلى عالم السياسة. لا سيما أن الكتاب ينطلق من وجهة نظر لا تبدو مناوئة لباراك، بمعنى أن نيران النقد والتحليل التي يطلقها المؤلفان– إن صح التعبير– هي نيران صديقة!

يسهب الكتاب في ذكر تفاصيل لأحداث عديدة، وقف باراك في مركزها، من تخليص الرهائن في أوغندا عام ١٩٧٦ واغتيال قادة المقاومة الفلسطينية في بيروت ١٩٧٣ ، وصولاً إلى الجهود الحثيثة لمنع تقدم ملف إيران النووي، وأزمة سفينة مرمرة التركية ٢٠١٠. ويشعر القارئ أن «حروب باراك» التي يتناولها الكتاب هي بمثابة رد الاعتبار للزعيم الذي لم يحصل على الفرصة الكافية لإنجاز برنامجه السياسي. إضافة إلى ذلك، يسلط الكتاب الضوء على ما يجب أن يعرفه الجمهور عن باراك، لا على كيف يبدو باراك واقعياً، ذلك الزعيم صاحب الأجندة الاجتماعية المنحازة للضعفاء والذي يعيش في الوقت نفسه حياة ترف تتنافى مع جوهر حزب العمل الذي تولى زعامته.

بين ميونيخ.. وبيروت!

عُين باراك في مطلع العام ١٩٧١ قائداً لدورية رئاسة الأركان، وذلك بعد مشاركته في حرب الاستنزاف وعمليات في السويس وسيناء والأراضي السورية. ووقف على رأس وحدته أمام تحد جاد: مجموعة مسلحة فلسطينية من أيلول الأسود تستهدف رياضيين إسرائيليين في مدينة ميونخ خلال دورة الألعاب الأولمبية عام ١٩٧٢ . وكرد على العملية قامت إسرائيل باغتيال القادة كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجار في بيروت عام ١٩٧٣ بالتزامن مع عملية استهدفت مقر الجبهة الشعبية في بيروت أيضاً.

كان باراك الأصغر سناً بين أعضاء هيئة الأركان العامة للجيش الإسرائيلي عندما عُين رئيساً لشعبة التخطيط. ثم تولى رئاسة شعبة الاستخبارات في العام ١٩٨٣ . سنوات قليلة، ثم تولى باراك قيادة المنطقة الوسطى في الجيش، ثم كانت الطريق قصيرة أمامه ليصبح نائباً لرئيس الأركان. وقد لعب باراك دوراً محورياً في التخطيط والتنفيذ في عملية اغتيال أبو جهاد خليل الوزير في تونس، في نيسان من العام ١٩٨٨م. وفي نيسان من العام ١٩٩١ شغل باراك منصب رئيس أركان الجيش الإسرائيلي.

يتناول الفصل اللاحق تفاصيل وصمةٍ لازمت باراك لسنوات طويلة، بسبب حادث تدريب وقع في قاعدة «تسئليم» للتدريبات في المنطقة الجنوبية، وراح ضحيتها عدد من الجنود عندما فتحت النار عن طريق الخطأ وأصابت متدربين أثناء التدرب على اغتيال الرئيس العراقي الراحل صدام حسين. حدد باراك تاريخ الحادي عشر من تموز لعام ١٩٩٢ تاريخاً للتنفيذ.. الذي ألغي لاحقاً في أعقاب الحادثة.

مع بداية العام ١٩٩٥ أنهى باراك مهامه كرئيس لأركان الجيش، منهياً بذلك خدمته العسكرية. ثم عين وزيراً للداخلية في حكومة رابين، ثم شغل منصب وزير الخارجية في حكومة شمعون بيريس بعد اغتيال رابين على يد اليميني المتطرف يغآل عمير، في تشرين الثاني من العام ١٩٩٥ .

قرّب رابين باراك منه ورأى فيه خليفته في رئاسة حزب العمل. صدقت آمال رابين وتوقعاته ولكن تلاشت آمال حزب العمل والجمهور الإسرائيلي الواسع، فبعد مرور شهور قليلة على أداء باراك اليمين أمام الكنيست كرئيس للحكومة، بدأ وزراء الائتلاف من الأحزاب الدينية بالاستقالة.

خاض باراك انتخابات العام ١٩٩٩ عن حزب العمل منافساً بنيامين نتنياهو، وانتصر فيها، وأعلن حينها عن فجر يوم جديد. وعمل منذ اليوم الأول على إدارة الحكومة بعقلية القائد غير القابل

ايهود باراك.

للضغط أو الابتزاز. سقط باراك قبل نهاية عامه الثاني في منصب رئيس الحكومة، وسقط معه ائتلاف أخذ يتآكل يوماً بعد يوم، بجانب أحلام باتفاق سلام مع سورية، واتفاق سلام مع الفلسطينيين، غادر باراك دون أن يحقق أياً منها، وذلك قبل أن يستنفد فترة ولايته.

وتجدر الإشارة إلى أن العام ٢٠٠٠ كان حافلاً على نحو خاص في فترة ولاية باراك، حيث شهد على التوالي تعثر المسار السوري، وانسحاب إسرائيل من جنوب لبنان في ٢٥ أيار دون تسوية مع سورية، ثم فشل المسار الفلسطيني في كامب ديفيد، واندلاع انتفاضة الأقصى في ٢٨ أيلول. وقد رأى باراك في الانتفاضة مخططاً فلسطينياً مدبرًا سلفاً، إذ حمل القيادة الفلسطينية وعلى رأسها الراحل ياسر عرفات مسؤولية الفشل، بعد أن رفض الفلسطينيون اقتراحاته السخية– على حدّ قوله– والتي لم يسبق لرئيس حكومة إسرائيلي أن اقترحها على الفلسطينيين من قبل. ولا بد هنا من الإشارة إلى تصاعد وتيرة الانتفاضة في أيامها الأولى لتصل إلى المدن والبلدات الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨في الجليل والمثلث، حيث قتلت الشرطة الإسرائيلية بالرصاص الحي ثلاثة عشر مواطناً من فلسطينيي الداخل. ولم يقف الكتاب عند أبعاد هذه الهبة المعروفة بهبة أكتوبر، ولا عند لجنة أور لتقصي

تناول الكتاب أيضاً المشروع النووي السوري، وأذكر باختصار أن إسرائيل استنتجت من خلال نشاط استخباري وجود جهود سورية حثيثة لامتلاك قدرات نووية بمساعدة كوريا الشمالية، وعليه، فقد اتخذ المجلس الوزاري المصغر إبان حكومة أولمرت في العام ٢٠٠٧ قراراً بتدمير الموقع المشتبه به في دير الزور شمال شرق سورية، وفي مساء الخامس من أيلول من ذلك العام، وبعد أن اتخذ القرار بالاجماع، أقلعت عشر طائرات حربية إسرائيلية من قاعدة رامات دافيد الجوية باتجاه الحدود السورية التركية متجهة إلى الأراضي السورية في عملية عسكرية أطلقت عليها اسم «بستان» أدت إلى تدمير الموقع بالكامل

الحقائق، وبالكاد أشار المؤلفان إلى الأحداث باختصار حيث ظهر المواطنون العرب من خلالها كمصدر لتهديد البلدات اليهودية.

تناول الكتاب أيضاً المشروع النووي السوري، وأذكر باختصار أن إسرائيل استنتجت من خلال نشاط استخباري وجود جهود سورية حثيثة لامتلاك قدرات نووية بمساعدة كوريا الشمالية، وعليه، فقد اتخذ المجلس الوزاري المصغر إبان حكومة أولمرت في العام ٢٠٠٧ قراراً بتدمير الموقع المشتبه به في دير الزور شمال شرق سورية، وفي مساء الخامس من أيلول من ذلك العام، وبعد أن اتخذ القرار بالاجماع، أقلعت عشر طائرات حربية إسرائيلية من قاعدة رامات دافيد الجوية باتجاه الحدود السورية التركية متجهة إلى الأراضي السورية في عملية عسكرية أطلقت عليها اسم «بستان» أدت إلى تدمير الموقع بالكامل، وراح ضحية القصف خمسة وثلاثون شخصاً من بينهم خبراء من كوريا الشمالية. في حين التزمت إسرائيل الصمت، ونسبت أخبار الهجوم إلى الصحافة الأجنبية.

باراك يستنفر بانيتا!

لا بد من الوقوف قليلاً عند حادثة السفارة الإسرائيلية في القاهرة، فقد تعرضت السفارة عام ٢٠١١ لهجوم من مئات المتظاهرين المصريين. وزير الدفاع الأميركي ليون بانيتا يتلقى مكالمة مستعجلة من تل أبيب، على الطرف الآخر في المكالمة وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك: «آلاف المتظاهرين يهاجمون مقر سفارتنا في حي الجيزة في القاهرة، وداخل المقر ستة من رجال الأمن، يفصل بينهم وبين الجموع المهاجمة باب فولاذي، ولو تمكنوا من اجتيازه فسيكون هناك تنكيل في بث حي ومباشر. نرجو التدخل»

جاء نداء الاستغاثة الأول مساء الجمعة الحادي عشر من أيلول عام ٢٠١١م. طلب وزير الدفاع الأميركي حينها من إسرائيل عدم التصرف بمفردها. وبعد جهود واتصالات مكثفة بين الجانب الأميركي والمصري، أصدر رئيس المجلس العسكري الأعلى في مصر المشير طنطاوي أوامره للقوات المصرية بالتحرك. وبعد مرور عشر ساعات على بداية الحادثة تمكن رجال الكوماندوز المصريين من تفريق المتظاهرين بعد سقوط مئات الجرحى، والوصول إلى مبنى السفارة الذي هدم المتظاهرون أسواره الخارجية، دخلت القوة المصرية المبنى وأخلت أفراد الطاقم الستة بعد أن تم تمويههم باللباس التقليدي المصري كي لا يشعر بانسحابهم أحد، ومن هناك نقلتهم عربة عسكرية مصفحة إلى مطار القاهرة، حيث كانت طائرة تابعة لسلاح الجو الإسرائيلي في انتظارهم، وأقلتهم إلى تل أبيب، وانتهت بذلك دراما استمرت لعشر ساعات. يشير مؤلفا الكتاب إلى الدور المركزي الذي لعبه باراك، إذ كان في قلب عملية اتخاذ القرار الأمني السياسي بوصفه وزيراً للدفاع وقت الحادثة، وبفضل قنوات اتصاله المباشرة والمفتوحة مع الإدارة الأميركية. ولربما جاء ذكر الحادثة لتكريس باراك القائد المتواجد في قلب عملية صنع القرار السياسي– الأمني، وليس باراك الذي ظهرت عليه علامات البذخ والترف في برج سكني فاخر وسط تل أبيب في الوقت الذي يحمل فيه أجندة اجتماعية.

اعتزل باراك الحياة السياسية ورئاسة حزب العمل وعضوية الكنيست عام ٢٠٠١ في أعقاب خسارته للانتخابات أمام زعيم الليكود في حينه أريئيل شارون. واتجه لمجال الأعمال محققاً ثروة طائلة. ثم عاد إلى الأضواء وزيراً للدفاع في حكومة نتنياهو بعد تنحي عمير بيرتس في أعقاب تقرير فينوغراد الذي نشر في أعقاب حرب لبنان الثانية عام ٢٠٠٦. وقد شغل باراك هذا المنصب لحين اعتزاله الحياة السياسية عام ٢٠١٣ للمرة الثانية.

ظهرت أهمية الكتاب من وجهة نظري لأنه غطى فترة زمنية أوسع بكثير من الكتابين السابقين، وجاء الكتاب بعد اعتزال باراك تماماً الحياة السياسية على عكس الكتابين السابقين اللذين جاء أحدهما قبل دخوله الحياة السياسية (الجندي الأول) والآخر بعد خسارته الانتخابات عام ٢٠٠١ (هراكيري). ولقد عرض الكتاب للكثير من الأحداث والعمليات والمفترقات السياسية الحاسمة التي ألقت بظلالها على المنطقة. وضم الكتاب الكثير من العمليات والتفاصيل الفنية المتعلقة بها. وقد لا نتفق مع الكثير مما جاء في الكتاب من حيث الصحة أو من حيث النزعة الاستعراضية التي حملت عنوان «حروب حياتي»، وكأن المؤلفين قدما لباراك تلك الخاتمة التي يجب أن تليق بقائد

ليس الكتاب الذي بين أيدينا الوحيد الذي خصص لباراك، فقد أثريت المكتبة العربية بترجمات كتب غنية عن حياته، وأعتقد أنه من المفيد مقارنة هذا الكتاب بكتابين آخرين، الأول بعنوان «الجندي الأول»، تأليف بن كسبيت وإيلان كفير، الكتاب من منشورات دار الجليل في عمان، وقد رأى النور عام ١٩٩٩ مبشراً بأوفر الشخصيات الإسرائيلية حظاً في مواجهة الليكود للوصول إلى منصب رئيس الحكومة، الأمر الذي تحقق بالفعل في انتخابات عام ١٩٩٩م. والكتاب الثاني بعنوان «هراكيري» (إيهود باراك–الإخفاق الأكبر) تأليف رفيف دروكر وترجمة هاشم حمدان، حيث صدرت ترجمته عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مدار، بمراجعة وتقديم الأستاذ أنطوان شلحت. ولا شك أننا أمام شخصية شغلت الرأي العام الإسرائيلي ووقفت في مركز عملية صنع القرار لعقود أربعة، وفي ظل احتمال عودة باراك لا يبدو أن كتابنا هو الأخير في القائمة.

ظهرت أهمية الكتاب من وجهة نظري لأنه غطى فترة زمنية أوسع بكثير من الكتابين السابقين، وجاء الكتاب بعد اعتزال باراك تماماً الحياة السياسية على عكس الكتابين السابقين اللذين جاء أحدهما قبل دخوله الحياة السياسية (الجندي الأول) والآخر بعد خسارته الانتخابات عام ٢٠٠١ (هراكيري). ولقد عرض الكتاب للكثير من الأحداث والعمليات والمفترقات السياسية الحاسمة التي ألقت بظلالها على المنطقة. وضم الكتاب الكثير من العمليات والتفاصيل الفنية المتعلقة بها. وقد لا نتفق مع الكثير مما جاء في الكتاب من حيث الصحة أو من حيث النزعة الاستعراضية التي حملت عنوان «حروب حياتي»، وكأن المؤلفين قدما لباراك تلك الخاتمة التي يجب أن تليق بقائد، وذلك بعد أن كان منذ العام ٢٠٠٠ فصاعداً رمزاً لانسداد الأفق وتبدد الأحلام بالنسبة لمؤيديه ومعارضيه على حد سواء، وذلك بالقدر الذي احتمله مستقبله السياسي في حينه من آمال وتوقعات، بصفته خليفة رابين السائر على خطاه.

خاتمة

انشغل هذا الكتاب بغالبيته بسرد أحداث وعرض تفاصيل من الميدان سواء لعمليات قادها باراك أو شارك فيها في المجالين الأمني والسياسي. وباراك الذي يقول عن نفسه أنه ينتظر على الشاطئ مراقباً.. يتحين الموجة المناسبة ليعود معها إلى مركز صنع القرار، يرى فيه المراقبون ديغول الفرنسي بنسخته الإسرائيلية، الذي سيعود يوماً وإن طال غيابه.

قد يتساءل القارئ، هل تصلح العقلية الأمنية «الناجحة» لإدارة شؤون السياسة بنجاح؟ هذا السؤال يذكرُ برسالة أرسلها باراك لأخيه أفينوعام بروغ قال فيها إن للإنسان عمر يقاس بالسنوات، وعمر آخر يقاس بالتجارب والإنجازات، والثاني هو الأهم حسب رأيه. لقد أنهى باراك بصعوبةٍ عشرين شهرا في رئاسة الحكومة. فكم يبلغ العمر السياسي لهذا الشخص الذي دخل العقد الثامن من العمر؟!